الهند
نظرتان عن «قرب»

لا تبعد الهند عنّا كثيرا، لا في شروط الجغرافيا، ولا في اعتبارات التاريخ.. ومن المجازفة الخطيرة أن نلغي قدرا كهذا حيث إن كل السياقات تقرّبنا من بلد بحجم قارّة، وبشر يفيضون عن بلادهم المتسعة فيتوزعون على قارات العالم.

أعرف الهند منذ أول مواطن منه عرفته قريتنا في سبعينيات القرن الماضي، بقي في الذاكرة، وفي التواصل معه عندما صافحت عيناي أول المشاهد خارج مطار بومباي.. إنما الهند حاضرة في تكويني المعرفي عبر عملاقين منها: طاغور وغاندي، كما هي أفلام بوليوود، ونجوم السينما الهندية الذين تلمسنا في حكاياتها مشاغبات الطفولة، والأغنيات المنسكبة رحيقا، حتى دون أن نفهم ماذا تعني الكلمات.

محمد بن سيف الرحبي

لم أزر الهند، وهي القريبة، كما حفظنا نشيد مركب الهند ذي الدقلين حينما يتمنى الصوري أن يكون ربانه وهو يعبر البحر والبحرين.. القريبة حسب معطيات الجغرافيا، وهي التي لم تفصل بيننا وبينها سوى بلون أزرق يمتد من ساحل مسقط وحتى حواف القارة الهندية.

والقريبة حسب دروس التاريخ، حينما كانت مدن الهند بوابة مفتوحة أمام بحارة عمان وتجارها، يحملون زادهم من تمر وليمون مجفف ولبان، ويعودون من هناك بعجائب المنتوجات الهندية.

جربت السفر إلى عشرات المدن حول العالم، لكنني لم ازرها هذه البلدة العظيمة والعميقة، القارة اللغز، المتمددة بشرا وثقافات، الساكنة في كل العالم، بأبنائها الذين تعرفهم كل قرى الدنيا، بثقافتها التي ترسخت حضارة إثر حضارة، مئات اللغات، وعشرات الديانات، تكتب تاريخها من جديد، وتحقق أعلى نسبة نمو في العالم.

تكاثفت علي التأملات، فيها وعنها.

فيها، عندما يغدو المكان مسربا لما لا يحصى من التأملات في حال الحياة، وكلما تفجّر العالم غربا كانت آسيا أقرب إلى خطط المواطن العماني للسفر إليها، كأنه يستعيد سيرة أجداده، حينما وضعوا موانئ الشرق نقاط مسارهم للبحث عن حياة ما.

في الشرق تبدو الخيارات أقل وطئا في متطلباتها، حيث البشر هناك يتمتعون بلطف تجاه الغريب، هو ضيف بدون لائحة اتهام تبحث عن اسمه، كما هي مطارات الغرب، وسياحة رخيصة، يضاف إليها حاليا ما عرف عن تمتع الهند بتطور طبي أضاف إلى جمال طبيعتها بعدا آخر للسفر إليها.

لماذا تأخرت عن الهند؟

لا أدري سببا واضحا، لكن حتما إنها تغري بالارتحال إليها، هي الثرية بحضارة، وحاضر، والأسباب للسفر إليها شتى، متعة الاكتشاف أولها.. وليست إلا النافذة الأولى. ولا بد من التحليق في بلد كل شيء فيه يغري بالاكتشاف، رغم ضيق الوقت، وتصاريف الرحلة.

إذا هذه هي الهند التي عرفها كل بيت عماني، ارتحل إليها كما فعل من هم قبلي، أو كما آخرون في بيوتهم لترتحل هي إليهم، حتى غدا كل قادم من هذه القارة هو هندي، مهما كانت جنسيته، لأن المفردة تعكس الصورة النمطية عن القوى العاملة البسيطة التي وصلتنا مع مطلع ثورة التنمية في بلادنا أواخر سبعينيات القرن الماضي.

أرض غاندي، الفيلسوف الذي أبهر العالم بقدرته على طرد بريطانيا العظمى من بلاده بمقاومة سلمية خلدته في ذاكرة العالم، لا في ذاكرة بلاده فقط.. أرض طاغور، الشاعر العظيم، والحكمة القادرة على تخليد صاحبها، رغم ملايين البشر من حوله، تأتي بهم الحياة وينتهون إلى حيث اللاشيء، وحدهم العظماء يبقون.

أرض المناضلين ضد الجوع والفقر، والبسطاء الذين يطلون علينا عبر شاشات السينما، تأكل الحاجة كرامتهم.. هي العمال الذين نراهم عبر (الفيزا) براتب أشد بساطة.

هي أرض أميتاباتشان وشاروخان، وعشرات النجوم في شاشة بوليوود الكبيرة، هي الأغنيات المنسابة بشجن غريب من الأفلام كما تتسلل من غرف الصفيح والخشب بالقرب من البيوت التي تبنى على أيدي هؤلاء المغتربين في مدن عمان وقراها وسيوحها، كما هو شأن بقية بلدان الخليج.

الهند المنشغلة بمئات الملايين من البشر تدفعهم إلى ثورة إنتاجية محاورها عدة، تخطط لإلغاء الفقر خلال العقود القليلة المقبلة.. الهند التي تسعى لتغيير الصورة النمطية عن أبناء شعبها، المتماسكة رغم كل هذا التباين في الديانات والثقافات، إنها العاملة بصمت، ترفع وتيرة النمو، وترسخ حضورها كواحدة من الدول المستقطبة للتعليم (على سبيل المثال) ليأتيها طلبة العلم من شتى بقاع العالم.

تنهض الهند بقوة لتقدم نفسها مستفيدة من تلك الفسيفساء من اختلافات مواطنيها، حيث تضع الهدف أمامهم، المستقبل، المبني بالعلم والعمل، تقاوم سقطات الفساد، ترتبك أحيانا لكنها تنهض لتتقدم خطوات إضافية، تصنع قوتها العسكرية كما تفعل مع قوتها الاقتصادية.. وتضع ثقلها في برمجيات الحاسوب وعلومه.

لم تعد الهند مصدرا للعمالة الرخيصة كما كانت في السابق، تحمي حقوق مواطنيها، حتى (عاملات المنازل)، بلاد كهذه لا مسار لها سوى التقدم، وتحقيق المزيد من درجات النمو، ومن سار على درب التقدم.. سيصل.

وحدها بلداننا العربية من تجعل من عدد السكان طاقة سلبية، تزيد من مستويات الفقر، فتطالب بتحديد النسل، أما الهند والصين فلديهما قول مختلف.

في لغة الأرقام تعد الهند سابع بلد من حيث المساحة الجغرافية عالميا، ولكنها الثانية في حسابات عدد السكان، ولأنها تشبه القارة فإن حدودها تتوزع بين المحيط الهندي جنوبا وبحر العرب غربا، وخليج البنغال شرقا، لكنها تعد مجاورة لباكستان والصين ونيبال وبوتان وبنجلاديش وميانمار وسريلانكا وجزر المالديف وأندونيسيا، تلتقي مع هذه الدول عبر اليابسة أو الماء.

كانت الهند مهد حضارة وادي السند وعبرتها طرق التجارة عبر التاريخ، وزخرت بالعديد من الامبراطوريات، ونشأت فيها أربع ديانات رئيسية هي الهندوسية والبوذية والجاينية والسيخية، بينما دخلتها ديانات أخرى في الألفية الأولى للميلاد، كالزرادشتية واليهودية والمسيحية، إضافة إلى الدين الإسلامي الذي وضح تأثيره أكثر في المناطق التي انفصلت لاحقا عن الهند وهي باكستان وبنجلاديش.

وفي العصور الحديثة خضعت الهند لقوى استعمارية تمثلت بشركة الهند الشرقية البريطانية في مطلع القرن الثامن عشر، وصولا إلى الاستعمار البريطاني في الفترة من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، وبعد رحلة كفاح مريرة، لكنها بمقاومة سلمية، نالت الهند استقلالها عام ١٩٤٧.

مجتمع متراميٌ، جغرافيا، وبشر، وديانات، وأعراقا، ولغات، إنما يجمع الـ٢٨ ولاية نظام ديموقراطي في سبعة أقاليم اتحادية.

بانجلور.. الفاصوليا المخبوزة

البلاد التي تأخرت في زيارتها كثيرا قاربت بين زيارتين لها أكثر مما أتوقع، وطفت في الرحلتين على مدن شتى، بنجلور، ميسور، أوتي، بومباي، بونا.. وكانت الخطوة الأولى

باتجاه بانجلور، المدينة التي قيل إنها من أرقى مدن الهند، وصلتها بعد الظهيرة، حينما أمضت طائرة الطيران العماني أكثر من ساعة على امتدادات طبقات السحب، كأنما المدينة تتخفى وراء ذلك البياض.

تعد هذه المدينة ثالث أكبر مدن الهند، وهي عاصمة ولاية كارناتاكا ويبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين نسمة، وتسمى مدينة الحدائق لوفرة المنتزهات الخضراء فيها، وسميت بهذا الاسم وفق أسطورة هندية تقول إنه في اواخر القرن الرابع عشر كان هناك ملك اسمه فيربالا يهوى رحلات الصيد إلا أنه ضل طريقه ذات مرة في الغابة، وفيما كان يصارع الجوع والتعب وجد كوخا وحيدا في غابة كثيفة حيث تسكنه امرأة عجوز فأطعمته فاصوليا مخبوزة تسمى باللغة المعروفة في بانجلو كانادا «بندا كالو» فأعجبه طعمها اللذيذ وكان مسرورا لدرجة أنه أراد تخليد هذه الذكرى فسمى المكان «بندا كالو اورو» بلغة الكانادا، وتعني مكان (الفاصوليا المخبوزة)، وتنطق باللغة العربية بنجلورو ، والتي تعرف اليوم باسم مدينة بنجلور .

ومن الأسطورة إلى العصر الراهن، تخطو بنجلور من زمن الفاصوليا المخبوزة إلى التقنية، فهي موطن بعض صناعات التكنولوجيا في الهند والعالم، خاصة تكنولوجيا المعلومات، حتى إنها تعد المدينة العالمية الأسرع نموا في آسيا ، ووصفت بأنها تشبه «سلة البايت» في الهند حيث يرمز البايت لوحدة تخزين بيانات في ذاكرة الحاسوب، كما تعرف عالميا بأنها وادي السيليكون الهندي ويماثله في أمريكا وادي السيليكون.

في الأيام الأولى لبدء تعرفي عليها كانت تهديني أجواء خريفية رائعة، كل هذه الأدخنة لا تهم، يكفي أن يأتي الهواء البارد جميلا كل صباح، ومن حولي الطبيعة تسيني طرقات ماكينة (التك تك).. سيارة الأجرة المتكاثرة بقوة في شوارع لا تأبه كثيرا للحفر في اسفلتها، الكل على موعد ما، وعليه اللحاق به، لا يهم كيف ومتى يصل، المهم أن يبقى على ذلك الأمل.

في المساءات التي يسفح فيها المطر بشدة نأوي إلى غرفنا، بحثا عن دفء، وعن لقمة عيش (لا تحرق أمعاءنا بتلك البهارات الحارة).. كان التعامل البشري جميلا حيثما حللنا، تلك الطيبة من الشرقي المحلقة بأجنحة أرواح عرفت ديانات سماوية وأرضية، فتقلبت بينها، تحيي إنسانيتها أولا وأخيرا.

مضت بنا (التك تك)، وسيلة النقل السائرة بعجلاته الثلاث، ترقص على الشارع، بسبب الحفر المتكاثرة، أو القيادة الماهرة والمراوغة لسائقها وهو يشرح بعربية متكسرة الأضلع تعلمها خلال عمله في الخليج عن أنواع الأشجار من حولنا، شدني نوعان منها: شريفة وصلالة.

في مستشفى للعظام كان زميل قطري يصحب والده يخبرني عن بقية الأسرة التي اصطحبها للفحوصات والعلاج، كما التقيت بالسعودي القادم من المنطقة الشرقية يأمل في فائدة من خلال جلسات العلاج التي تأكل الوقت (والمال) كما أوجز الإماراتي معاناته مع المستشفيات التي فرّ منها إلى.. الهند.

في صالة الاستقبال بالفندق البسيط التقي كل صباح بالأشقاء الخليجيين، عائلات وفرادى، قلت للموظف: أين القنوات العربية طالما أن الجاليات المقيمة لديك يتحدثون بلغة الضاد؟!

يوم جديد في مدينة قديمة

كأنها ليست تلك المدينة الهندية التي باتت البارحة على وقع المطر المنهمر، والبرق المضيء للأرض، والأرض ملأى بالملايين يتقافزون حياة وحيوية في كل بضعة كيلومترات.

كانت الساعة تشير إلى بدايات الصباح الأولى، وكان الشارع منسحبا بكل ما فيه، وحده بقي الأسفلت دلالة على أنه من بقايا البارحة، أرصفة مبتلّة بالمطر، وأشجار لا زالت تقذف بضع قطرات إلى زجاج السيارات.

الشوارع فسيحة، لولا الحفر، وهناك مشاريع طرق سريعة لا زالت لم تتشكل بعد، لكن المدينة مختلفة عمّا رأيتها قبل أن تهجع للنوم، كل ذلك الحديد غادرها، حتى يصح القول عن الهند إنه لا فراغ فيها، جميعها مملوءة إما بالبشر أو بالشجر، وبينهما تسير البقر بهدوء غريب، كأن آذانها ليست معنية بالفوضى البشرية من حولها.

بعقلية الكاتب أكثر من نظرة السائح حاولت أن أفهم هذه القارة المترامية الأطراف، بمليارها السكاني، والتي يقول عنها سائق إنها أكثر من مليار لأن الأرقام المتناسلة عصيّة على العد، يكرر دائما اسم علي بابا للإشارة إلى الحكومات الفاسدة التي تتشكل حسب قوله من مجموعة علي بابا والأربعين حرامي.

رأيت الشعب الصامت الذي يكافح، يقول أحدهم إن عليه أن يكافح الخنوع والمسكنة أمام المهراجات والكبار الذين يعرفون كيف يحلبون الضرع الدسم، فيما الفقراء ينتشرون تحت الشمس، تحرق جباههم، يبحثون عن لقمة عيش، وقد كان بالإمكان أن تكون الهند من الدول العظمى، لكنها معايير الحكومة القوية والثرية.. والشعب الفقير، دولة نووية وجيش جرار، لكن لم يرشح من النمو الاقتصادي إلى أفواه مئات الملايين من السكان سوى القليل جدا.

وددت لو أن الطريق بين المطار ومهجعنا في بانجلور يمر بأمكنة أكثر لأرى المكان بمنأى عن ذلك الصخب المجلجل، لكن سيفتقد المكان أكثر ملامحه حيوية، لن تكون البلاد كما هي البلاد لو أخرجتها من حسابات اللهاث المستمر الراكض في شرايين الحياة.

ليست هي الهند لولا أن السائق يسترسل بلغة عربية جيدة عن مكان عمله السابق في عمان، الوادي الكبير، ثم انتقاله إلى القرم.. كأنه يشير إلى أن بيننا مكوّنًا مهمًا في عملية اللهاث خلف لقمة العيش.

هو من ميسور، مدينة ترتفع مآذنها لتمنحك الشعور بأنك في دولة إسلامية، لولا تلك المنصات العالية من التماثيل الهندوسية التي تعيدك إلى الهند، بلد المليار مواطن.

في الطريق إلى أوتي كانت ميسور جسرا لا بدّ منه للعبور، وللتأمل، والاستطلاع لما تحتويه من مكونات مدهشة، كما هي النظرة لجانبي الشارع وهو يمتد على أشجار وحقول، لكن بؤس الإنسان يطل، والأبقار قد تقطع الطريق.

ميسور ثاني أكبر مدينة في ولاية كارناتاكا، وتبعد ١٤٦ كيلومترا عن بنلجور، ومن أبرز معالمها مسجد السلطان تيبو حيدر علي الذي يلقب بنمر ميسور بسبب وقوفه الشجاع ضد الاستعمار البريطاني، قاتل مع والده وعمره ١٥ عاما، وتولى الحكم عام ١٧٨٢م ليواصل مقاومة المحتلين لكن الجيش الإنجليزي الذي زحف على ميسور تمكن من قتل السلطان وعائلته.

ومن معالم المدينة أيضا قصر ميسور، الذي يروي الترف والرفاهية الهندية في عصر المهراجا ما بين عامي ١٦٣٨ و١٨٠١، وهناك يمكن القول إن المكان أشبه بلوحة رائعة التشكيل ويقال إنه كان مشيدا من الطين والخشب، وعندما التهمه الحريق ليلة زواج ابنه المهراجا الكبرى عام ١٨٧٩ أعاد بناؤه لاحقا بنفس التصميم لكن الرخام والجرانيت مع طلائه بالذهب والفضة وسائر المواد الفخمة التي نقلت من بريطانيا وأوروبا لتعكس الارستقراطية الهندية حيث اكتمل بناؤه عام ١٩١٢.

يتكون البناء من ثلاثة طوابق يعلوها طابقان عبارة عن مخارج وأبراج وصالات، والسطوح مغطاة بقطع زجاجية ملونة، فيما تتوزع الغرف على معارض مبهرة للصور الشخصية للأسرة ومستودعات الأسلحة والذخائر والأزياء، ويوجد بالقصر عشرة معابد هندوسية ويضاء ليلا بأكثر من عشرة آلاف مصباح.

احتجنا ساعات لنصعد الجبل المبلل بالمطر، وصولا إلى قمة المكان حيث تقع على ارتفاع ٢،٢٤٠ مستوى فوق مستوى سطح البحر، يقال إنها كانت المكان المفضل للإنجليز خلال فترة استعمارهم للهند، حيث يقضون الصيف والإجازات فيها، كل شيء حولنا رائع تقوله الطبيعة لنا في دفتر الرحلة كأنه السحر، شعرت في لحظات أنني أدخل مدينة حلمية لا أراها في الواقع، ربما سأصحو بعد قليل وأجد أن ما أراه وأعيش تفاصيله ليس أكثر من صرح بناه الخيال في لحظة حلم، مزارع الشاي والأشجار غابات تلتصق بغابات.

استعدت طاغور، في وصفه:

في الضباب المشمس، من الساعات الضجرة ،
ما أبهى مرآك العظيم يتجلّى في زرقة السماء !

وحينما ودعت الهند كانت كلماته خير معبّر:

«أزفت ساعة الرحيل.. إني أسافر فارغ اليدين طافح القلب بالأمل.. الطير يحلق في الفضاء لا ليذهب في تحليقه إلى الخلاء.. بل ليرجع إلى أرضه العظمى».

كان المطر ينسحب بعد ليلة خصبة.

وكنا ننسحب من هذا البلد الذي لا يمكن قراءته جيدا في ظرف أسبوعين من الزمان، إنها القصة القديمة لحضارة متعددة الأوجه أكثر من القدرة على الفهم، بديانات متكاثرة، ولغات تحسبها لغة واحدة، إنها لغة الهند، وهي تنهض من ثقل الفقر والتخلف، وتبحث عن خروج سريع من قائمة الدول المحسوبة على النامية (أي المتخلفة) لتضع قدما ثقيلة (كأقدام فيلتها) بين الدول الكبرى.

ودعت الهند، بلاد العجائب، وقد أودعت ذاكرتي آلاف المشاهد، لأمّة تكافح، وتعمل، وويل من أمة صامتة تعمل.. وتكافح، أمة لديها كل الإمكانيات على النهوض، وإذا نهضت فإن آسيا ستقلب الطاولة على القارتين، الجديدة (أمريكا) والعجوز (أوروبا) ففي الهند والصين طوفان بشري يعرف كيف يكتسح العالم، ليس من باب العمالة الرخيصة، ولا الصناعات البسيطة، ولكن من خلال الدخول في شرايين العالم الاقتصادية.. واشياء أخرى.